العمدة

وأثره فى الاصلاح الاجتماعى

للأستاذ حسن علوان

المدرس بالمدارس الثانوية

نظام العمد فى البلاد المصرية من خير النظم التى تلائم طبيعة الريفيين وتشاكل غرائزهم، إذ هو يجعل كبير القرية حاكمها فلا يشعر المحكومون معه بغضاضة أو خروج عن حدود ما ألفوا.

والريفى بطبعه نفور من الحاكم الغريب معرض عنه . فهو لا يفضى اليه بسر ولا يلقاه بصراحة ، وانما يصطنع معه الحيطة والمصانعة ويتبع المكر والمداورة ويأنف أن يطلعه على عوره أو يظهره على سوئه ، بينما تراه يبث لعمدته همه وحزنه ويكشف له عن دخيلة نفسه ويقفه على ما خفى من تدبيره وكيده، ولا ضير عليه أن يعرف العمدة نقائصه أو يتبين عيوبه ، لأنه نشأ حيث نشأ وألف فى حياة القرية ما ألف. وهذا القروى لا يخلو أن يكون للعمدة قريبا أو صهرا أو جارا أو صاحبا أو زارعا أو مستأجرا ، تجمع بينهما بأساء الحياة ونعماؤها ، فتراهما متقابلين فى ولائم الأفراح وجنازات الموتى وفى صلاة الجماعة فى المسجد وفى سهرات رمضان وفى المجالس التى تعقد لحل المشاكل وفض الخصومات .

ومن ثم كانت الحياة السعيدة فى القرية متوقفة على العمدة الصالح ، لأنه من أهل بلده كالرأس للجسم . فمتى كان العمدة صالحا صلح أكثر أهل القرية وسعدت حياتهم ، وتعاونوا على الخير والمعروف ، وسرت فيهم روح المحبة والتعاطف ، ومتى كان العمدة سيئا فحدث عن الجرائم ترتكب، والشهادات تزور، وقل ما شئت من الشقاق والنفاق والإثم والعدوان وتدبير المكايد والاغضاء عن المجرمين ، واتهام الأبرياء المساكين .

وليس صلاح العمدة محصورا فى كرم أخلاقه وطهارة ذمته فحسب ، ولكنه مع هذا يجب أن يكون رجلا جم النشاط ، عظيم الغيرة، يقظا، كثير التجارب، دائم الاتصال بأهل القرية، عليما بما يسرون وما يعلنون ، وما يحبون وما يكرهون، رفيقا فى حزم ، قويا فى غير عنف ، يسوى بين الناس ، ويؤثر مصلحة أهل القرية على هواه ، لا يستمع لوشاية ، ولا ينصر فريقا على فريق، ولا يلجأ الى الشدة حيث يصلح اللين، ولا يسارع إلى الغضب حيث ينفع الحلم، يشاورهم فى الأمر، ولا يقضى لانسان على هفوة هنا ثم يأخذ بها آخر هناك

كما أن هناك أبوابا كثيرة أمام العمدة النشيط الصالح ، لو وجه اليها اهتمامه وعنايته فى قريته لفهم منصبه كما يجب أن يكون ، وشعر براحة الضمير ، واستحق الزعامة على أهل

القرية فالتفوا حوله بقلوبهم وعواطفهم ، وشاعت آثاره بين مواطنيه وأولى الأمر ، فتمتع باحترام هؤلاء وتقدير هؤلاء ، وشعرت الحكومة بخدماته الاجتماعية وجهده المشكور فى النهوض القومى فعملت على مكافأته أدبيا بمنح الأوسمة والرتب وأذاعت عنه ما يرفع قدره ويعظم من شأنه بين أهل وطنه ، وأصبحت قريته مثابة لمن ينشد الراحة والاستجمام فى ظل الهدوء والسكون الريفى ، بعيدا عن ضوضاء المدينة ، وزياط المقاهى ، وزحمة الشوارع والميادين .

العمدة وتجميل القرية :

نفى إمكان العمدة أن يوجه نشاطه وعنايته الى تزيين قريته ، وتنظيفها وتنسيق طرقها ، وغرس الأشجار فيها ، وإبعاد الحظائر عن حجرات النوم ، ونقل أكوام السباخ بعيدا عن المساكن ، وردم المستنقعات ، وتغطية الآبار ، ووضع الطلمبات أمام أبواب الشوارع والأزقة ، ثم يعهد الى كل بيت بالقيام بكنس الشارع ورشه يوما فى الأسبوع أو يومين ؛ وأن يكلفهم أن يضعوا برميلا أوصندوقا تلقى فيه الخرق والقمامات والقش والورق وما إلى ذلك وأن يكل الى خفير الحى بانارة فانوس أو فانوسين فى كل شارع لقاء ملاليم يدفعها كل بيت فى الشهر ، وأن يتعاون سكان الحى أو الشارع فى بناء مرافق تحتوى على حمامين ومرحاضين مثلا فيخصص أحدهما للرجال وآخر للنساء ، ويختلف اليها رقيقو الحال الذين يمنعهم ضيق اليد من إنشاء مرافق خاصة فى منازلهم . فهذه أشياء نسوقها على سبيل المثال . وفى إمكان العمدة النشيط أن يقوم بها فيخلق القرية خلقا آخر ، وينشئها فى صورة مونقة جميلة ، ويجعل لها رواء ورونقا يحبب الناس فى الإقامة بها ، ويرغبهم فيها ، فتصير الحياة فيها سعيدة ، والإقامة محبوبة ، والصحة مكفولة .

ولسنا حينما نطلب الى العمدة أن يقوم بتلك الأعمال فى قريته ، نكلفه شططا ، أو نحمل الريفيين من أمرها عسرا أو رهقا ، فهى أمور كل مؤونتها نشاط من العمدة ، واتصال بأهل القرية ، ومراقبة لأعمالهم وتصرفاتهم ومداومة على نصحهم وإرشادهم وتبصيرهم بالعمل وإرشادهم إلى خير السبل وأخذهم بقليل من النظام واشعارهم بفائدة التعاون ، وبأن الفرد يبذل القليل فى سبيل التعاون ليجنى من ورائه الخير الكثير .

ونود ألا يدخل فى بال أحد أنا نريد من العمدة أن تتم وسائل التجميل فى قريته بين عشية وضحاها ، أو أن يباشرها بوسائل العنف والقوة بين الفلاحين ، فينفروا منها ، ويتجافوا عنها ، ولكنه يصطنع فى ذلك اللباقة والمهارة والترغيب وإقناع الفلاح أن كل ما يطلب منه أداؤه إنما هو فى سبيل مصلحته ، والحرص على توفير سعادته ، وصون صحته ، فلا يداخله تلقاءها ضجر أو ملل ، ولا يبدو منه إزاءها نفور أو كسل .

كما أن العمدة يمكن أن يضمن نجاح مقصده إذا كان نهازا للفرص، موفقا فى استغلال المناسبات ، فكثير من الفلاحين إزاء ضيق منازلهم القديمة ، وكثرة أفراد الأسرة ، واطراد النمو الذى يقضى بالتوسع ، يخرجون إلى فضاء حول القرية فينشئون فيه مساكن جديدة ، حينئذ يبادر إلى مشاطرتهم الرأى، ومشاركتهم فى رسم المنزل، وترغيبهم فى ترك فضاء حوله ، و إنشاء النوافذ التى تفسح للضوء والحرارة والهواء وغرس بعض الأشجار المورقة، والشجيرات المزهرة، وجعل حظيرة البهائم فى مكان خاص، وتحويط المنزل بسور تلقى داخله بظهر الدار أكوام الحطب التى كثيرا ما يسبب تكديسها على السطح حرائق تذهب بالأموال والأرواح ، وتجر الويلات على الجيرة وجيرة الجيرة . كما أنه يشاركهم برأيه فى العمل على توسيع الشارع وجعله مستقيما منتظما ، ومتى أفلح العمدة فى إقناع واحد أو اثنين ببناء منزله فى وضع صحى مقبول جرى على منواله غيره، إذ أن الفلاح ميال بفطرته للمحاكاة، مولع بالمنافسة والتقليد.

وأظن أن العمدة إذا رغب إلى أهل قريته فى أن ينقلوا أكوام السباخ من الحظائر إلى الحقول مباشرة دون أن تكدس أمام المنازل وتضيق بها الأزقة ، وتنبعث منها الروائح الكريهة وتمو فيها الحشرات وجراثيم الأمراض، وتفسد الهواء، وتقذى العيون، أظن العمدة إذا رغب إليهم فى ذلك ما امتنعوا وسارعوا اليه وتعودوه، وهذا أمر لا يكلف العمدة والفلاح إلا شيئا من المراقبة والنصيحة ، فيجئ آخر الأمر وقد ألف تكويم السباخ فى الحقل ، ونفر من تكويمه بين منازل القرية. ومن ذا الذى يمتنع عن أن يكل إلى ابنه أو بنته كنس الشارع فى نوبته مادام كل منزل سيؤدى هذه المهمة ؟ فيخلص جو القرية من الغبار الثائر والتراب المتطاير، الذى يصيب الأطفال بالرمد والعمى ، ويقطع الحناجر ويمزق الصدور .

ولعل الناس حينما يسمعون أننا نريد من العمدة أن يوحى للفلاحين بإنشاء مرافق فى كل شارع أو حى تحتوى على حمامات ومراحيض، يتعاظمهم الأمر، ويزعمون أن هذا تكليف فوق وسع الفلاحين وأكثر من طاقتهم ، مع أن سكان شارع واحد لو بذلوا فى سبيل ذلك ما يبذلون فى زيارة الأولياء ، وما يحملون للنذور، وينفقون بين القبور، ويبددون فى المآتم، لأدى كل ذلك ما نريد وأكثر مما نريد ، وجنوا من جرائه نظافة أبدانهم، وستر عوراتهم، وصيانة كرامتهم، ويسمو بنفوسهم عن أن تكون كالبهائم تتبرز فى الشوارع وتحت الجدران وبين الخربات والتلال ، بحال تتقزز منها الآداب ، وتأباها الكرامة ، ولا يرضى عنها خلق أو دين .

ريفنا المصرى جميل ، والعمد هم الذين يظهرون هذا الجمال على أتمه ، بمقدار غيرة كل على بلده ، وبذله النصائح لأهله . أمام العمد ميدان واسع يستطيعون فيه أن ينبهوا الأمة حكومة وشعبا الى مهمتهم العظيمة ومسئوليتهم الكبرى ، ويحتلوا مكانهم من التجلة والتقدير،

وذلك بأن ينشئوا القرية من جديد، ويستبدلوا بشكلها القبيح المشوه البالى القذر المتعرج، صورة للجمال والتنسيق والنظافة والاستواء، فيقصدها كل مكدود معنى بنشد الصحة والاستجمام فى ظل الهدوء والسكون، ولا يفرون منها كما يفر المرء من العدو ويهرب من البلاء.

مصر جميلة بهوائها وسمائها وأرضها وغرسها وأهلها، ولكن هذا الجمال لا يكشف عنه إلا عناية العمد بتنظيف قراهم وتنسيقها وعرضها فى صور جميلة وبذا يستطيعون أن يمحوا العار الذى لحقها من تهاونهم والخراب الذى حل بها من اهمالهم، فلقد أصبحت القرى المصرية لا تذكر الا ذكر بجانبها المرض والقبح وفرار الناس منها. ومتى عاد اليها جمالها كثر سكانها وحسنت سمعتها وظهرت مزيتها. وأعتقد أن العمدة الذى يطمع فى بناء مجد عاجل أو يحب أن يظفر بسمعة طيبة، وكسب تقدير الحكومة، يمكنه أن ينتهز تلك الفرصة فيسرع الى تجميل قريته، وتنبيه الناس اليها ودعوتهم الى زيارتها وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

العمدة وتحسين الصحة والمعيشة القروية :

والعمدة الصالح هو الذى تعنيه صحة أهل قريته، وتحسين معيشتهم، وتنظيم حياتهم، فلا يدخر وسعا فى ارشادهم الى وسائل المحافظة على الصحة وطرق الوقاية من العلل والأمراض

ولديه المأذون ومعلمو المدارس الأولية والمستنيرون من أهل القرية يستطيع بفضل عنايته وغيرته ونشاطه، أن يبثهم فى نواحيها، ويبعثهم الى مجتمعاتها فى كل مناسبة فيعلموا ويرشدوا. ولا يشق عليه أن يشترك أهل القرية جميعا فى شراء "راديو" يلتفون حوله فى المساء بعد عودتهم من المزارع، فيقف بينهم فى أثناء ذلك واحد من ذوى الدراية يشرح لهم وسائل الحياة الصحية ويبصرهم بمزايا النظافة، ويذكرهم بأن الدين أمر بها وحث على اتباعها. كما أن الشمس والهواء اللذين لا يكاد أن يراهما أو يمسهما إنسان فى بيوتهم ضروريان للصحة، وسلاحان لقتل الأمراض، وأن التبرز حول المنازل، وتلويث الأيدى وإراقة المياه القذرة وجعل مرابط البهائم أمام البيوت من العوامل التى تفسد الجو، وتولد الحشرات، وتأوى الذباب والبعوض، وتبعث الوباء والوخم فى الجو، وتنشر الأمراض، وتنقل العدوى بينهم. واذ عرفوا أن الرمد والعمى وأمراض الصدر والبلهارسيا والانكلستوما لا يكاد يفلت من شرها أو شر بعضها واحد منهم، وأن نسبة المرضى بها فى مصر أكثر من نسبتها فى أى بلد آخر، وأن سبب اصابتهم بهذه الأمراض ناتج من إهمالهم النظافة، وتعرضهم للأقذار، وإفسادهم للجو الذى يعيشون فيه أمكنهم بقليل من العناية بأنفسهم ونظافة أبدانهم أن يحاربوا هذه الأمراض التى تفتك بهم وبأبنائهم من بعدهم، وتقعدهم عن الكسب والعمل، وتسرع بهم الى الموت والفناء، وتجعلهم آخر الأمر شعبا هزيلا ضعيفا، لا يستطيع أن يحمى نفسه، ولا يخشى عدوه بأسه.

نعم يرى كثير من العمد أبناء القرية يقعون فى شرك المشعوذين ، وحيل المضللين الذين يخدعونهم بادعاء السحر ، والاتصال بالجان ، واطلاق البخور ، وكتابة التمائم فى عمل الحب والكشف عن الكنوز ، ومعالجة الأمراض ، ومعرفة البخت ، فيسلبون أموالهم ، ويفسدون عقولهم ، ويسيئون صحتهم ، ويفرقون بين المرء وزوجه ، ويعكرون الجو بين الرجل وقومه ويصيرون فى القرية بلاء كبيرا ، وشرا مستطيرا ، وكم ذهبت ضحيتهم أرواح ، ووقعت بسببهم شرور . ومن الأسف الا نراهم يأخذون على أيديهم . ويحمون أهلهم وقومهم من بلائهم وضلالهم . بل قد نرى بعض العمد أنفسهم يقع ضحية لهم ويخدع بكيدهم ومكرهم فأول واجب عليهم هو تطهير البلاد من شر هذا البلاء ومحاربة هؤلاء المتعطلين المفسدين . ولهم فى رسول الله أسوة حسنة اذ يقول عنه القرآن الكريم (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) .

ليست مهمة العمد مقصورة على مقابلة جندى أو تلقى اشارة من المركز ، أو مرافقة المعاون أو المحضر ، ولكن مهمتهم أسمى من ذلك وأعظم ، ورسالتهم لوطنهم أجدى من هذا وأكرم . كل منهم فى قريته راع لها ومسئول عنها أمام الضمير وأمام الله والوطن ، مسئول عن صحة أهلها وعن تحسين المعيشة فيها . وتوفير السعادة بها . مسئول عن تعليم الجاهل . وارشاد الضال ومحاربة الآثم . وتشجيع العامل وإنهاض الخامل . مسئول عن كل أولئك كما هو مسئول عن أبنائه وزوجه وأسرته . عندذلك يمكن العمدة أن يباهى بمنصبه ويتحدث بخدمة وطنه . أما المظاهر العتيقة البالية التى تدور حول كسب العمدة سلطانه من الحكام وسيطرته الفارغة على أهل القرية وفرض الطاعة عليهم فرضا دون أن يشعرهم بفضله ، أو يعينهم على كسب خير ودفع ضر فذاك أمر لا يلائم ما يتطلع اليه كل مصرى من النهوض بالشعب وترقيته ، واستحقاق كل فرد للتقدير والاحترام من طريق عمله وجهده .

وعلى العمدة أيضا مسئولية كبرى فى الجهل السائد بين أهل القرى . وفى وسعهم انقاذ الفلاحين من بلاء كثير لو كانوا يشعرون بواجبهم نحوهم ويحسون أنهم إخوانهم وبنو عمومتهم ونصراؤهم وعمالهم وأنسباؤهم وأقرباؤهم . هل ينكر أحد منهم أن السواد الأعظم من الفلاحين يؤمن بفائدة الوصفات البلدية وأثرها فى علاج الأمراض . وينفر من الأطباء وينفر من المستشفيات فراره من البلاء ؟ هل ينكر أحد منهم أن كثيرا من النساء فى القرى يكحلن المصابين بالرمد من أطفالهن بوحل البرك والمستنقعات فيجلبن لهم العمى . وان منهن من تبخر المحموم بروث الحمير فيموت مختنقا . وان كثيرا من القرويين مات أو أصيب بشلل أو عاهة أو عمى بتأثير الكى الذى يباشره أدعياء المعرفة من الجهال . بينما الأطباء موفورون بحمد الله فى البلاد ، ولا يعظم على العمدة أن يبرم اتفاقا بينه وبين أى

طبيب على أن يزور قريته مرة أو مرتين أو أكثر فى الأسبوع اذا صحت عزيمته على ذلك وهذا أمر لا يكلف كل ريفى أكثر من بضعة قروش يدفعها كل شهر و يجتمع منها أجر الطبيب وثمن الدواء . و بذلك يتيسر للعمدة أن يقيم فى قريته صيدلية متواضعة تحتوى على الأشياء الضرورية من الأربطة والقطن المطهر والقطرة والمراهم والمنبهات والمسكنات والمطهرات وأدوات الاسعاف وغير ذلك إذ أن كل انسان يعيش فى القرى و يعمل فى الزراعة معرض للغرق والحريق ، معرض أن يقع عليه جدار أو يصاب فى شجار ، معرض أن تلدغه عقرب أو أفعى ، معرض فى كل وقت لمغص أو جرح أو كسر أو إغماء . فحاجة الفلاحين إذن ضرورية لتوافر المسعفات والمسكنات لديهم . وحينئذ يمكن أن يؤمن الفلاح بفضل الطبيب . ويصون نفسه من شر المرض . و ينمى تلك الخرافات التى تملأ رأسه وتسيطر على فكره وتوقعه فى بلاء المرض وتسوقه الى الفناء .

العمدة والتعاون والمؤاساة :

ولا شك أن خير ما يتجه إليه العمدة الصالح هو بث روح التعاون بين أهل القرية ، وذلك يتطلب عمل العمدة على أن يأنس أهل القرية فيه الثقة والأمانة والغيرة على مصالحهم فيستطيع بعد ذلك أن يكون سفيرهم فى انتقاء البذور وشرائها وفى بيع القطن وأخذ تسليف عليه ، وفى جمع المبرات والصدقات من القادرين لتوزيعها على المحتاجين ، وفى تأليف مجلس قروى يعمل على إصلاح ذات البين ، وترقية شئون القريه . كما أن مواساة الناس فى مصائبهم ، ومعاونتهم فى شدتهم ، من أهم الصفات التى تزيل الضغائن وتصلح النفوس وتعود بالأثر الطيب على أهل القرية فيصير العدو حبيبا والبعيد قريبا والخصم مناصرا ، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فقال «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» كما قال جل شأنه «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم» .

هذه بعض المبادئ التى نظن أن العمد لو ساروا على ضوئها وتمسكوا بمبادئها لقاموا بنصيب كبير فى النهوض بالفلاح ، ووفروا على الحكومة مجهودا عظيما يحسن أن تستخدمه فى مشروعات أخرى تعود على الأمة بالخير والرفاهية .

وفى الحق أن بعض العمد فى البلاد فطنوا الى واجبهم ونهضوا بقراهم فأصبحت نموذجا حسنا للريف المصرى الجميل ، وأصبح أهلها طرازا للفلاح المصرى الذى ينبغى أن يكون ، وانطلقت ألسنة الناس بالثناء عليهم بين كل هيئة وفى كل مكان ، فعسى أن يتنافس العمد فى وسائل إصلاح القرى ، فإن الإصلاح والنهوض بالوطن خير ما يتسابق اليه العاملون المخلصون .

حسن علوان